حديث عيسى بن هشام بين المقامة والقصّة:

ومهما يكن من أمر فبالإضافة إلى الجانب الروائي في هذا العمل، قد كانَ له جانبٌ آخر يشُدُّهُ إلى بعض الأشكال الأدبيَّة في تراثنا العربي وهو المقامة ويتَّضح شبهها بالمقامة من أوَّل وهلة، حين نتذكّر أنَّ اسم الرواية الذي جعله المؤلِّف عنوانًا لهذا العمل هو (عيسى بن هشام) هو الاسم نفسه الذي اتَّخذه بديعُ الزمان راوية مقاماته إضافةً إلى استخدام السجع والمُحسّنات البديعيَّة في لغة السرد والوصف، كذلك أخذ المويلحي من أسلوب المقامة المزج في الأسلوبين بين الشعر والنثر حين أوردنا أبياتًا شعريَّةً في بعض المواقف تأتي توضيحًا أو دعمًا لما يتضمَّنه النثر من معانٍ، كما أنَّها تشبه المقامة عدم نموِّ الشخصيّات واختفاء كثيرٍ منها بانتهاء الفصل الذي يتحدَّث عنها.

غير أنَّ المويلحي خرج بعد ذلك من طبيعة المقامة وخصائصهما الفنيِّة فهو فيما يخصّ الهدف والغاية لم يلتزم بهدف المقامة التعليمي بل جعله هدفًا إصلاحيًّا وانتقاديًّا فهدف المويلحي في (عيسى بن هشام) هو النقد الاجتماعي الذي يتمثَّل في تصوير تناقضات ومظاهر سلبيَّة ونقائض ظهرت في المجتمع المصري إثر اتصاله بالحضارة الغربيَّة أثناء الاحتلال الانكليزي، فقد تناول المويلحي بالنقد والسخرية أكثر جوانب الحياة المصريَّة والعادات والتقاليد ومن ذلك نقده تطبيق القانون الفرنسي في مصر[1].

وهناك سمةٌ أخرى تفصل بين حديث عيسى بن هشام والمقامة وهي وجود رابطة داخليَّة تربط بين فصولها في حين تفتقر معظم المقامات لذلك فالمقامات – كما هو معروف– مجموعة من المواقف المنفصلة التي يرويها عيسى بن هشام عن بطله أبي الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان وهذه المواقف لا ارتباط بينهما فلا يجمعها إلا شخصيَّة الراوي وشخصيَّة البطل لكن المويلحي استطاع أنْ يوجدَ هذا الارتباط ولو بصورة بسيطة حتَّى صار كلُّ فصلٍ يؤدِّي إلى آخر[2].

([1]) الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره: ٣٥٢ – ٣٥٤ .

([2]) الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره: ٣٥٤ .

إضافة إلى الأسلوب القصصي التصويري الذي يعتمد على تقديم الصور الحيَّة التي تستمدّ من الواقع مثل صورة المُحامي الشرعي الذي يرعى التقوى والورع ويستر وراءهما ليُخفي نفاقه وجشعه[1].

كذلك الحوار يستغلّه المويلحي استغلالاً جيِّدًا، حتَّى تصبح له وظيفة قصصية في تطوير وقائع الرواية والكشف عن خلفيَّة شخصياتها ورسم أبعادها في أسلوب سهلٍ ومُرسل لا سجع فيه على عكس أسلوب السرد الذي يأتي مسجوعًا إضافة إلى أنَّها قصَّة مليئة بالأحداث والمواقف المُتطوِّرة والشخصيّات المُنوَّعة والنامية وفيها الكثير من العناصر الفنيَّة الروائيَّة كالتشويق والمفاجأة والتعقيد والحل[2].

غير أنَّ حديث عيسى بن هشام لا يخلو من عيوب ومن أبرز تلك العيوب عدم استمرار كلِّ الشخصيّات ونموّها والتزام السجع في السرد والوصف وفرض المؤلّف ذاته وآراءه على الشخصيَّة في بعض المواقف حتّى تبدو الشخصيَّة مُتحدِّثة بما لا يُناسبها ويُلائمُ الموقف ويُطوِّر الحدث ويأتي الحوار أحيانًا أشبه بمقالٍ إضافة إلى عدم الترابط بين بعض الفصول بشكل فنّي كافٍ.

---

(1) المصدر نفسه: ٣٥٤ .

(2) المصدر نفسه: ٣٥٤ .